جوانب سياسية من هدي السيرة النبوية

الدكتور فتح الرحمن القرشي*

تمهيد

السياسة العادلة لأية أمة هي تدبير شئونها الداخلية والخارجية بالنظم والقوانين التي تكفل الأمن لأفرادها وجماعاتها والعدل بينهم، وتضمن تحقيق مصالحهم وتمهيد السبيل لرقيهم وتنظيم علاقتهم بغيرهم.

كان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في حياته مرجع المسلمين في تدبير شئونهم العامة: في السلم والحرب، وكان قانونه في هذا التدبير ما ينزل عليه من ربه، وما يهديه إليه اجتهاده ونظره في المصالح، وما يشير به أولو الرأي من صحابته فيما ليس فيه تنزيل. وكان التدبير بهذه المصادر يتسع لحاجات الأمة ويكفل تحقيق مصالحها.

سواء أكانت الحرب أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم أم كانت تدبيرًا استثنائيًّا لا يلجأ إليه إلا لضرورة دفع العدوان وقطع الفتنة، فإن الأحكام التي أوجب الإسلام مراعاتها لتخفيف ويلات القتال من خير ما عرف من قوانين الرحمة بالإنسان. وهذه الأحكام وإن كانت تتفق مع أحكام القانون الدولي في كثير من المواضع إلا أنها تخالفها من جهة أنها أحكام دينية شرعها الدين ويقوم بتنفيذها إيمان المسلمين وقوة يقينهم مثل سائر الأحكام الدينية.

هذه مشاركة متواضعة في "جوانب سياسية من هدي السيرة النبوية"، تشتمل على دراسة جانبين رئيسيين: الأول هدي النبي صلّى الله عليه وسلّم في مكاتباته إلى الملوك والرؤساء وغيرهم، وسفراؤه وصفات الدبلوماسية، مع الوقوف على أهم رسائله للملوك والرؤساء، وردود الملوك على تلك الرسائل مع بيان وفوائدها ونتائجها.

والثاني هدي النبي صلّى الله عليه وسلّم في القتال، هديه قبل الحرب، وأثناء الحرب: ومواقفه من الأسرى في بدر، وبني المصطلق، ومعاملاته صلّى الله عليه وسلّم مع بني قريظة، ومع أهل مكة يوم فتحها.

وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يتقبلها قبولاً حسناً، ويثقل بها موازين أعمالنا يوم القيامة، وأن ينيلنا بها ووالدينا وجميع المسلمين شفاعة رسوله الكريم، آمين.

---

* الأستاذ المساعد بقسم الحديث وعلومه، كلية الدراسات الإسلامية (أصول الدين)، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان.

المبحث الأول:

هدي النبي صلّى الله عليه وسلّم في مكاتباته إلى الملوك والرؤساء وغيرهم

بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم كتبه وسفراءه إلى الملوك والرؤساء نذكر منهم: قيصر هرقل حاكم قسطنطينية، وقيروس أو المقوقس حاكم مصر الروماني "جريج بن متّى"، والحارث بن أبي شمر الغساني النصراني عامل قيصر على بلاد الشام "صاحب دمشق"، وكسرى خسروا ملك فارس، وأصحمة بن الأبجر النجاشي ملك بلاد الحبشة، وهوذة بن علي صاحب اليمامة في نجد، وجيفر وأخيه عباد ابني جلندا صاحبا عُمان، والمنذر بن ساوي صاحب البحرين.

وقد كان هؤلاء ملوك العرب والعجم والروم الذين يسودون الجزيرة العربية يومئذٍ ، أو يتصلون بها بأوثق الصلات وكان أهمهم وأعظمهم بلا ريب هرقل قيصر الروم وكسرى ملك فارس وعمالهما، وقد كانا يقتسمان سواد العالم القديم يومئذٍ.

أراد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يدعوهم للإسلام فعين السفراء وأرسل معهم الرسائل إلى مختلف الأنحاء لكل ملك ولكل أمير. وكُتُب النبي صلّى الله عليه وسلّم المرسلة إليهم جميعاً كانت مهمتها واحدة، وهي الدعوة إلى الإسلام الدين الحق.

نتناول في هذا البحث ما قدمته إلينا الرواية الإسلامية عن سفراء النبي صلّى الله عليه وسلّم وصفات الدبلماسية، وصورة الكتب المرسلة – وهي جميعها في صيغ واحدة أو متماثلة ، وفيها يدعو النبي صلّى الله عليه وسلّم ملوك عصره إلى الإسلام والإيمان برسالته – وردود الملوك على رسائل الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، وفوائد ونتائج رسائله صلّى الله عليه وسلّم إلى الملوك والأمراء.

المطلب الأول: سفراء النبي صلّى الله عليه وسلّم وصفات الدبلوماسية

أولاً: من سفراء النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى الملوك والرؤساء[1]

1. دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه، سفيراً إلى هرقل قيصر الدولة الرومانية.
2. عبد الله بن حذيفة السهمي رضي الله عنه، سفيراً إلى كسرى ملك الفرس.
3. عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه، سفيراً إلى النجاشي ملك الحبشة.
4. حاطب بن أبي بلتعة اللخمي رضي الله عنه، سفيراً إلى المقوقس ملك مصر.
5. شجاع بن وهب رضي الله عنه، سفيراً إلى الحارث الغساني حاكم الشام.
6. عمرو بن العاص رضي الله عنه، سفيراً إلى جيفر وعباد ابني جلندا صاحبي عُمان.
7. سُليط بن عمرو العامري رضي الله عنه، سفيراً إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة في نجد.

8. العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، سفيراً إلى المنذر بن ساوي أخي عبد القيس حاكم البحرين
9. المهاجر بن أبي أمية المخزومي رضي الله عنه، إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن.

ثانياً: صفات رجل الدبلوماسية الإسلامية

هناك شروط ومواصفات لرجل الدبلوماسية الاسلامية ومن أَهمِّها[2]:

1. **الاسلام والدعوة إليه:** قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3] . وإذا كان المسلمون كلهم دعاة الى الله تعالى فرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم الى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدعاة.
2. **حسن الخلق:** أخلاق السفير النبوي، هي أخلاق الاسلام التي بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وفصلها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سنته وأهمها في السفير الصدق والتواضع[4] .
3. **العلم:** لا نريد هنا أن نبين منزلة العلم لأن الكلام على هذه المسألة طويل، ولكننا نؤكد هنا أن العلم بالشيء هو وسيلة نقل الفكرة والمبدأ، لذا عندما تنظر الى جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – وهو يحاور النجاشي ثم يقرأ عليه سورة مريم ﴿كهيعص. ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [5]. تتيقن من دقة الاختيار النبوي ونصاعة خطاب العالم ودقة اختياره للألفاظ والعبارات[6].
4. **الصبر:** قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [7]. والحقيقة أن الصبر هو عدة الداعية، وزاده المستمر ولو تصفحت سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وسيرة صحابته الأجلاء لوجدتها حافلة بالصبر على الدعوة، وموقف الطائف شاهد على ذلك.
5. **الحكمة:** وقد كان سفراء الرسول صلّى الله عليه وسلّم يتصفون بالحكمة، فهذا عمرو بن العاص كان في اقواله وأفعاله، قيل لعمرو: مالعقل؟ قال: "الإصابة بالظن، ومعرفة مايكون بما قد كان. ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، إنما العقل الذي يعرف خير الشرين"[8]".
6. **سعة الحيلة:** يجب أن يكون السفير مدركاً لأبعاد المناورة السياسية، متأنياً كتوماً، وسعة الحيلة التي ترتكز أولاً وقبل كل شيء على الذكاء من أهم سمات السفير، وقد كان سفراء

الرسول صلّى الله عليه وسلّم يتصفون بالذكاء، والدهاء وتوقع الأحداث، والحساب لكل مايمكن أن يحدث وهذه مقومات سعة الحيلة[9].

7. **الشجاعة**: وقد تحدث التاريخ الاسلامي عن شجاعة السفراء والذين أرسلهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم الى الملوك وأنهم كانوا لايخافون لومة لائم.
8. **الفصاحة والوضوح**: الفصاحة وجزلة اللفظ والدقة في توصيل المعاني الى السامعين شرط أساس في الرجل الذي يتصدى للمهمة الدبلوماسية، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه، قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِيO هَارُونَ أَخِيO اشْدُدْ بِهِ أَزْرِيO وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِيO كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًاO وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًاO إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾[10] . وقد اختار الرسول صلّى الله عليه وسلّم سفراءه ومبعوثيه من العرب الذين تربوا في الجزيرة العربية ومع البدو أحياناً فقد كانوا أصحاب نقاوة ولم تتكدر باختلاط الأعاجم بعد، فقد كانوا على قدر كبير من الفصاحة والوضوح.
9. **المظهر**: تميز سفراء النبي صلّى الله عليه وسلّم بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر وقد حرص النبي صلّى الله عليه وسلّم على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة الى جانب سماتهم العقلية والنفسية سالفة الذكر.

هذه أهم الصفات لسفراء النبي صلّى الله عليه وسلّم والتي ينبغي للسفير المسلم أن يتحلى بها وتكون للدولة الاسلامية مقياس في اختيار من ترشحه لهذا المنصب الخطير.

المطلب الثاني: رسائل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للملوك والرؤساء

رسائل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للملوك مؤسسة على حكمة الدعوة رُوعي فيها مايمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد التي يدينون بها، "والخلفيات" التي يمتازون بها، فلما كان هرقل والمقوقس يدينان بألوهية المسيح كلياً أو جزئياً، وكونه ابن الله، جاءت في الكتابين اللذين وجّها إليهما كلمة "عبد الله" مع اسم النبي صلّى الله عليه وسلّم صاحب هاتين الرسالتين ، فيبتدئ الكتابان بعد التسمية بقوله: "من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم" وبقوله: "من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط" بخلاف ماجاء في كتابه صلّى الله عليه وسلّم الى كسرى أبرويز، فاكتفى بقوله: "من محمد رسول الله الى كسرى عظيم الفرس" وجاءت كذلك آية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[11]، في هذين الكتابين، وما جاءت في كتابه الى كسرى ابرويز لأن الآية تخاطب أهل الكتاب الذين دانوا بألوهية المسيح، واتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وقد كان

هرقل امبراطور الدولة البيزنطية والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيين، وزعيمين دينيين كبيرين للعالم المسيحي، مع اختلاف يسير في الاعتقاد في المسيح هل له طبيعة أم طبيعتان[12].

ولما كان كسرى ابرويز وقومه يعبدون الشمس النار، ويدينون بوجود إلهين، أحدهما يمثل الخير وهو يزدان، والثاني يمثل الشر وهو اهرمن، وكانوا بعيدين عن مفهوم النبوة والتصور الصحيح للرسالة السماوية، جاءت في الكتاب الذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة: "وأني رسول الله الى الناس كافةً لينذر من كان حياً".

ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك الى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء والشعوب، اختار الرسول صلّى الله عليه وسلّم أسلوباً جديداً من أساليب الدعوة وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرسائل الى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الاسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الاسلامية ودولتها في المدينة وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة واستطاعت الدولة الاسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومتميزاً[13]. وسأتناول هنا أهمّ مميزات رسائل النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وأهم هذه الرسائل، ردود الملوك على رسائله صلّى الله عليه وسلّم ، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: مميزات رسائل النبي صلّى الله عليه وسلّم

تجاهل الرسول صلّى الله عليه وسلّم تماما التوسعات الاستعمارية التى كان يقوم بها الروم والفرس ضد بعض المناطق العربية وكتب صلوات الله وسلامه عليه لولاة هذه المناطق مباشرة فكتب لوالى الروم على دمشق والمقوقس والى مصر، وكتب إلى باذان والى الفرس على اليمن ، وتعتبر هذه الخطوة رائعة ذات مغزى عظيم في الدلالة على عظمة الدعوة.

صيغت كتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمنتهى الحكمة والبراعة فالرسول فيها سمح يدعو إلى الإسلام والسلام ولا يهدد.

يخاطب الملوك والروساء بألقابهم "عَظيم الرُّوم، عَظيم فارس، مَلك الحَبَشة، عظيم القبْط" ويعترف بمكانتهم ويقرر أن سلطانهم في ظل الإسلام باق لهم ، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب ملك.

يذكر أن هناك زكاة في أموال الأغنياء ولكنه يؤكد أن الزكوات والصدقات لا تحل لمحمد صلّى الله عليه وسلّم ولا آل محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وإنما تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم ، وهو بهذا يؤكد أنه ليس طالب مال.

كان عليه الصلاة والسلام يخاطب كل ملك حسب ظروفه ، فإن كان من أهل الكتاب أشار إلى ما بين الأديان السماوية من روابط ، وإذا كان من غيرهم أشار إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه.

اختير المبعوثون بحيث يعرف كل منهم لغة من سيرسل إليه.

امتدت فترة إرسال الرسل فيما بين الحديبية ووفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

ثانياً: أهم هذه الرسائل

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّوم: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلّى الله عليه وسلّم كتب إلى هِرَقل: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مِنْ محمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّوم، سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبعَ الهُدى، أمَّا بَعْدُ: فَإنى أدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإنْ تَوَلَّيْتَ، فَإنَّ عَلَيك إثْمَ الأرِيسِيِّيْنَ[14]. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[15]".

وفي حديث غير الواقدي أن دحية لما لقي قيصر قال له: "يا قيصر أرسلني إليك من هو خير منك، والذي أرسله خير منه ومنك، فاسمع وذل، ثم أجب بنصح، فإنك إن لم تذلل لم تفهم وإن لم تنصح لم تنصف. قال هات. قال: هل تعلم أن المسيح كان يصلي؟! قال نعم. قال فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له، وادعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح في بطن أمه، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى، وبشر به عيسى بن مريم بعده، وعندك من ذلك أثاره من علم تكفي عن العيان وتشفي عن الخبر. فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت في الدنيا، وأعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة ويغير النعم". فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه ورأسه وقبله[16] .

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسٍ: أرسل النبي – صلّى الله عليه وسلّم – بكتاب الى كسرى ملك الامبراطورية الفارسية، مع عبدالله بن حذفة السهمي، أمره أن يدفعه الى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين الى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– "أن يُمَزَّقُوا كُلَّ ممزق"، عن قتادة ، عن أنس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتب ، قبل موته ، إلى كسرى. "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مِنْ محمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إلى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسٍ، سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى وآمَنَ باللهِ وَرَسُولِهِ، وشَهِدَ أنْ لاَ إله إلاَّ الله وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه ورَسُولُهُ، أدْعُوكَ بِدِعَايَة اللهِ، فإنى أنا رَسُولُ اللهِ إلى النَّاسِ

كَافَّةً لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً ويَحِقَّ القَوْلُ عَلى الكَافِرِينَ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ المِجُوسِ"[17].

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى النَّجاشِى مَلِكِ الحَبَشَةِ: أمَّا كتاب النبي – صلّى الله عليه وسلّم – الى النجاشي ملك الحبشة فقد أرسلها مع عمرو بن أمية الضمري، وقد جاء في الكتاب: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ محمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إلى النَّجاشِى مَلِكِ الحَبَشَةِ، أَسْلِم أَنْتَ، فإنى أَحْمَد إِلَيْكَ اللهَ الذى لا إله إلاَّ هُوَ الملِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المؤْمِنُ المهَيْمِنُ، وأَشْهَدُ أنَّ عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللهِ وكَلِمتُهُ ألقَاهَا إلى مَرْيَمَ البَتُولِ الطَّيِّبَةِ الحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعيسى، فَخَلَقَهُ الله مِنْ رُوحِهِ ونفخه، كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيدِهِ، وإنى أَدْعُوكَ إلى اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، والمِوالاَة عَلى طَاعَتِه، وأَنْ تَتَّبِعنى، وتُؤمِنَ بالَّذِى جَاءَنى، فَإنى رَسُولُ اللهِ، وإنى أَدْعُوكَ وجُنُودَكَ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وقَدْ بَلَّغْتُ ونَصَحْتُ، فاقبَلُوا نَصيحَتى، وَالسَّلاَمُ عَلى مَنِ اتَّبعَ الهُدَى[18]".

فقال ابن إسحاق: "أن عَمْراً قال له يا أصحمة! إن عليَّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأنا في الثقة بك منك، لأنّا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم تخفك على شئ قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك الإنجيل بيننا وبينك شاهدٌ لايرد وقاضٍ لا يجور، وفى ذلك الموقع الحز وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم وقد فرق النبي صلّى الله عليه وسلّم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه، لخير سالف وأجر ينتظر". فقال النجاشي: "أشهد بالله إنّه للنبى الذى تنتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل وأن العيان ليس بأشفى من الخبر[19]".

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى المقوقِس عظِيمِ القِبْطِ: كتب صلّى الله عليه وسلّم إلى المقوقِس مَلكِ مصرَ والإسكندرية:"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مِنْ محمَّدٍ عبدِ اللهِ ورسُولِه، إلى المقَوْقِس عظِيمِ القِبْطِ، سَلامٌ على من اتَّبَعَ الهُدى، أما بَعْدُ: فإنى أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإسْلامِ، أَسْلِم تَسْلَمْ، وأَسْلِم يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فإنْ تَوَلَّيْتَ، فإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ القِبْط[20]. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾"[21].

بعث به مع حاطب بن أبى بَلتعة، فلما دخل عليه، قال له: "إنه كان قبلَك رجلٌ يزعم أنه الربُّ الأعلى، فأخذه الله نكالَ الآخِرَةِ والأُولى، فانتقم به، ثم انتقمَ مِنه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرُك بك، فقال: إنَّ لنا دِيناً لن ندعَه إلا لما هو خيرٌ منه، فقال حاطب: ندعُوك إلى دِين الله، وهو الإسلام الكافى به الله فَقْدَ ما سِواه، إنَّ هذا النبى دعا الناسَ، فكان أشدَّهم عليه

قريشٌ، وأعداهم له اليهودُ، وأقربَهم منه النصارى، ولعَمْرى ما بِشارةُ موسى بعيسى إلا كبِشَارَةِ عيسى بمحمد، وما دعاؤُنا إيَّاك إلى القرآن إلا كدُعائك أهلَ التوارةِ إلى الإنجيلِ، وكل نبيّ أدرك قوماً فَهُمْ مِن أُمَّتِه، فالحقُّ عليهم أن يُطيعوه، وأنتَ ممن أدركه هذا النبيُّ، ولسنا ننهاك عن دينِ المسيح، ولكنَّا نأمُرك به". فقال المقوقِسُ: "إنى قد نظرتُ فى أمر هذا النبيِّ، فوجدتُه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عَن مرغوبٍ فيه، ولم أجده بالساحِرِ الضَّالِ، ولا الكَاهِنِ الكَاذِب، ووجدتُ معه آيةَ النبوةِ بإخراج الخَبءِ، والإخبار بالنَّجوى، وسأنظر"[22].

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى المُنْذِر بن سَاوى: كتب صلّى الله عليه وسلّم إلى المُنْذِر بن سَاوى، فذكر الواقدى بإسناده، عن عِكْرمة قال: "وجدتُ هذا الكتاب فى كتب ابن عباس بعد موته، فنسختُه، فإذا فيه: بعثَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم العلاءَ بن الحضرم إلى المنذِر بن سَاوى، وكتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام". فكتب المنذرُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أما بعد، يا رسولَ اللهِ! فإنى قرأتُ كتابك على أهل البحرين، فمِنهم مَن أحبَّ الإسلامَ وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم مَن كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فَأَحْدِثْ إلىَّ فى ذلك أمرك"، فكتب إليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد، فانى أذكرك الله عزوجل، فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه، فانه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإنى قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية"[23].

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى جَيْفَرٍ، وعَبْدٍ ابنى الجُلَنْدى: أرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم عمرو ابن العاص رضي الله عنه إلى جيفر و عباد ابني الجلندي بعمان فصدقا بالنبي صلى الله عليه و سلم و أقرّا بما جاء به و صدَّق عمرو بن العاص أموالهم و أخذ الجزية من المجوس[24]. وجاء في كتابه إليهما: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا الإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل أي تنزل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما وختم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الكتاب"[25].
وكتب أبى بن كعب وختم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الكتاب [26].

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى هَوْذَة بن علىّ: وكتب النبى صلّى الله عليه وسلّم إلى صاحب اليمامة هَوْذَة بن على، وأرسل به مع سَليط بن عَمْرو العامرى رضى الله عنه: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي: سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك"[27].

فلمَّا قدم عليه سَليط بكتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مختوماً، أنزله وحيَّاه، واقترأ عليه الكتاب) [28].

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى الحارث ابن أبى شِمْرٍ: ووجه صلّى الله عليه وسلّم شجاع بن وهب صلّى الله عليه وسلّم إلى أمير دمشق –من قِبَل هِرَقْل– الحارث بن أبي شِمْر، وكان يقيم بغوطتها وفيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله، وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك". فلمّا قرأ الكتاب رمى به، وقال: "من ينزع ملكي مني". واستعد ليرسل جيشًا لحرب المسلمين، وقال لشجاع: "أخبر صاحبك بما ترى"، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك، وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيئ بإيلياء ما يلزم لزيارته، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى، وَوَصَلَه بنفقة وكسوة" [29]. وختم الكتاب[30].

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى بديل بن ورقاء وبسر وسروات بنى عمرو: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى بديل بن ورقاء وبسر وسروات بنى عمرو. سلام عليكم، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإنى لم آثم بإلكم ولم أضع فى جنبكم، وإن أكرم أهل تهامة على لأنتم، وأقربه رحماً ومن تبعكم من المطيبين، وإننى قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسى ولو هاجر بأرضه غير سكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً، وإنى لم أضع فيكم إذ سلمت، وإنكم غير خائفين من قبلى ولا مخفرين. أما بعد:

فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة وابنا هوذة وهاجرا وبايعا على من تبعهم من عكرمة وأخذ لمن تبعه منكم مثل ما أخذ لنفسه وإن بعضنا من بعض أبداً فى الحل والحرم. وإنى والله ما كذبتكم وليحييكم ربكم"[31].

كتابه صلّى الله عليه وسلّم إلى بنى زهير بن أقيش: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى زهير بن أقيش ، سلام على من اتبع الهدى فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو أما بعد إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وفارقتم المشركين وأعطيتم من المغانم الخمس وسهم النبى والصفى فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله"[32].

ثالثاً: ردود الملوك على رسائل الرسول صلّى الله عليه وسلّم

قد كان تلقي الملوك لهذه الرسائل يختلف، فأما هرقل، والنجاشي والمقوقس، فتأدبوا، وتلطفوا في جوابهم، وأكرم النجاشي والمقوقس رسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأرسل المقوقس هدايا منها جاريتان كانت إحداهما مارية أم إبراهيم ابن رسول الله، وأما كسرى أبرويز فلما قرء عليه الكتاب مزقه، وقال: "يكتب إليَّ هذا وهو عبدي؟"[33] فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: "مزق الله ملكه". وأمر كسرى باذان – حاكمه على اليمن – بإحضار النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فأرسل بأبويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله". وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله بكل دقة، وهذا من دلائل نبوته صلّى الله عليه وسلّم.

فعن سعيد بن المسيب قال: كتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى كسرى وقيصر والنجاشى أما بعد: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[34] قال سعيد: "فمزق كسرى الكتاب ولم ينظر فيه"، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم مزق ومزقت أمته. فأما النجاشى فآمن وآمن من كان عنده فأرسل رسول صلّى الله عليه وسلّم بهدية حلة فقال رسول الله اتركوه ما تركتكم وأما قيصر فقرأ كتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال هذا كتاب لم أسمع به بعد سليمان النبي بسم الله الرحمن الرحيم ثم أرسل إلى أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وكانا تاجرين فسألهما عن بعض شأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسألهما من تبعه فقالا تتبعه النساء وضعفة الناس فقال أرأيتما الذين يدخلون معه يرجعون قالا لا قال: "هذا هو النبي ليملكن تحت قدمى لو كنت عنده لغسلت قدميه"[35].

جواب القيصر: تسلم هرقل رسالة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – ودقق في الأمر كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصحيحين حين سأله عن أحوال النبي، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: "إن كان ماتقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه"[36].

جواب كسرى على كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم: ولقد تسلم كسرى كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم فلما قُرئ عليه، مزَّقه، فعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما –: أن رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – "بعث بكتابه إلى كسرى. فلما قرأه كسرى مزقه – فحسبت أن سعيد بن المسيب – قال: فدعا عليهم رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم –: أن يمزقوا كل ممزق"[37].

جوابَ النجاشيُّ على كتاب النبى صلّى الله عليه وسلّم: ثم كتب النجاشيُّ جوابَ كتاب النبى صلّى الله عليه وسلّم: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إلى محمد رسول اللهِ، من النجاشى أصحمة، سلامٌ عليك يا نبيَّ الله من الله ورحمةُ الله وبركاته، الله الذى لا إله إلا هُوَ، أما بعد: فقد بلغنى كِتابُك يا رسولَ الله فيما ذكرتَ مِن أمر عيسى، فوربِّ السماءِ والأرضِ، إنَّ عيسى لا يزيدُ على ما ذكرتَ ثُفْروقاً إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرَّبنا ابن عمك وأصحابه، فأشهدُ أنَّك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتُك، وبايعتُ ابنَ عمك، وأسلمتُ على يديه للهِ رب العالمين". والثُفْروق: عِلاقة ما بين النواة والقشرة. وتوفى النجاشيُّ سنةَ تسع، وأُخبر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بموته ذلك اليوم، فخرج بالناسِ إلى المصلَّى، فصلَّى عليه، وكبَّرَ أربعاً.

قلت: وهذا وهم – والله أعلم – وقد خلط راويه، ولم يُمَيِّز بينَ النجاشيِّ الذى صلَّى عليه، وهو الذى آمنَ به وأكرمَ أصحَابه، وبينَ النجاشيِّ الذى كتب إليه يدعوه. فهما اثنانِ، وقد جاء ذلك مبَّيناً فى "صحيح مسلم" أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتب إلى النجاشى، وليس بالذى صَلَّى عليه[38].

جواب هَوْذَة بن عليّ على كتاب النبى صلّى الله عليه وسلّم: وكان هوذة بن علي الحنفي شاعراً وخطيباً، فهو شاعر قومه وخطيبهم، وله مكانة في العرب، فهو يرى أن يميز عن غيره بميزات تمنح له، وكان الشعراء يمنون على قومهم بأنهم ألسنتهم المخرسة الناطقة المهاجمة المدافعة، فهم من الطبقة المثقفة الممتازة التي حظيت بالتقدير ونالت الاحترام، بسبب قدرة اللسان، وأثر الشعر في الناس. وهو شاعر يجب إدخاله في الجاهليين، لأنه لم يعتنق الإسلام.

فلما قرئ على هوذة الكتاب رد رداً لطيفاً على سليط. قال الواقدي: أن أركون دمشق الروحي من عظماء النصارى كان عند هوذة فقال له هوذة: جاءني كتاب من النبي يدعوني إلى

الإسلام فلم أجبه فقال الاركون: لم لا تجيبه ؟ قال: ضننت بديني وأنا ملك قومي ولئن تبعته لن أملك. قال: بلى والله اتبعته ليملكنك وإن الخير لك في اتباعه وأنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم عليه السلام وأنه لمكتوب عندنا في الأنجيل محمد رسول الله. وأركون هذا أسلم على يد خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق. ثم أن هوذة كتب للنبي صلى الله عليه و سلم جواب كتابه وقال فيه: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قوي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فأجعل لي بعض الأمر أتبعك"[39].

وكأنه أراد الشركة في النبوة أو الخلافة بعده صلى الله عليه و سلم. وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر فقدم بكتابه على النبي صلّى الله عليه وسلّم وأخبره بخبره فلما قرأ الكتاب على النبي صلى الله عليه و سلم قال: (باد وباد ما في يديه). فلما انصرَفَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم من الفتح[40]، جاءه جبريلُ عليه السلام، بأن هَوْذَة قد مات، فقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: "أمَا إنَّ اليَمَامَةَ سَيَخْرُجُ بِهَا كَذَّابٌ يَتَنَبّأ، يُقْتَلُ بَعْدِى"، فقال قائل: يا رسول الله؛ مَن يقتُلُهُ؟ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أنْتَ وأصحابُك" فكان كذلك.

جواب المقوقِس عظِيمِ القِبْطِ: أخذ المقوقس كتابَ النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم ، فجعله فى حُقٍّ مِنْ عَاجٍ، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتبُ بالعربية، فكتبَ إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لمحمد ابن عبد الله، من المقوقِس عظيم القِبْطِ، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأتُ كتابَك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبياً بقى، وكنتُ أَظن أنه يخرُج بالشام، وقد أكرمتُ رسولَك، وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكانٌ فى القِبْطِ عظيم، وبِكسوة، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك". ولم يزد على هذا، ولم يُسلم، والجاريتان: مارية وسيرين، والبغلةُ دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية[41].

جواب المُنْذِر بن سَاوى: كتب المنذرُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أما بعد: يا رسولَ اللهِ! فإنى قرأتُ كتابك على أهل البحرين، فمِنهم مَن أحبَّ الإسلامَ وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم مَن كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فَأَحْدِثْ إلىَّ فى ذلك أمرك".

المطلب الثالث: فوائد ونتائج رسائله صلّى الله عليه وسلّم إلى الملوك والأمراء

كل الكتب التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الملوك والأمراء كان يدعوهم فيها إلى الإسلام بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة ولا شك أن في ذلك قوة عجيبة

وشجاعة عظيمة. وهذا الوصف العام لكتب الرسول الى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً. ولتلك الرسائل فوائد ونتائج عظيمة.

أولاً: فوائد رسائل الرسول صلّى الله عليه وسلّم: جميع كتب الرسول صلّى الله عليه وسلّم التي أرسلها الى الملوك والرؤساء يفتتحها صلّى الله عليه وسلّم بالبسلمة، وهي آية من كتاب الله تبارك وتعالى وفي تصدير الكتاب بها أمور مهمة؛ كإستحباب بدء الكتب ببسم الله الرحمن الرحيم اقتداءً برسولنا محمد صلّى الله عليه وسلّم ، فقد واظب عليها في كتبه صلّى الله عليه وسلّم ، كما فيها جواز كتابة آية من القرآن الكريم في كتاب، وان كان هذا الكتاب موجها الى الكافرين، وفيها جواز قراءة الكافر لآية أو أكثر من القرآن الكريم غذا كانت ضمن رسالة أو نحوها، لأن كتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تضمنت البسملة وغيرها، وفيها جواز قراءة الجنب لآية أو أكثر من القرآن الكريم لأن هذا الكافر التي أرسلت إليه الرسالة تضمنت البسملة وغيرها لايحترز من الجنابة والنجاسة فيقرأ الرسالة التي اشتملت على آيات من القرآن الكريم وهو جنب. ويمكن أن نستنبط من رسائل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الملوك والأمراء الفوائد التالية:

مشروعية إرسال السفراء المسلمين إلى زعماء الكفر، لأن كل كتاب كان يكتبه الرسول صلّى الله عليه وسلّم يكلف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل.

مشروعية الكتابة إلى الكفار في أمر الدين والدنيا. وينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المرسل والمرسل إليه وموضوع الكتاب وهو واحد في جميع الكتب ويتلخص في دعوتهم إلى الاسلام، واتخاذ الخاتم، وجميع وسائل التوثيق المشروعة، فقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يختم رسائله بعد كتابته بخاتمه.

عدم بدء الكافر بتحية الاسلام، وهي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ذلك لأن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يطرح السلام في كتبه على ملك من الملوك الكفر، بل كان يصدر كتبه بقوله:"السلام على من اتبع الهدى"، أي آمن بالإسلام ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحية الاسلام.

تقدير الرجال وإنزالهم منازلهم. فلما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بل أبقاه أميراً عليها بعد اسلامه، حين رأى فيه الاداري

الناجح والحاكم المناسب، مما يدلل على أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقدر الكفاءات في الرجال ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن الجدير بالذكر أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد ولى ولده شهراً أميراً على اليمن بعد موته[42].

جواز أخذ الجزية من المجوس ومن هو في حكمهم. قال ابن القيم رحمه الله:"وقد قالت طائفة في الأمم كلها اذا بذلوا الجزية، قبلت منهم؛ أهل الكتابين بالقرآن، والمجوس بالسنّة ، ومن عداهم ملحق بهم لأن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم، فأخذها منهم دليل على أخذها من جميع المشركين وإنما لم يأخذها صلّى الله عليه وسلّم من عبدة الأوثان من العرب لأنهم أسلموا قبل نزول آية الجزية، فإنها نزلت بعد تبوك"[43].

جواز أخذ هدية الكافر. فقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة وهو كافر هدية تشتمل على جاريتين وكسوة للرسول صلّى الله عليه وسلّم وبغلة يركبها فقبلها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، واحدى هاتين الجاريتين مارية القبطية.

ثانياً: نتيجة ارسال الرسل إلى الملوك والأمراء: ذكرنا الكتب التي أرسلها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، وكان رسول الله واثقاً من قوة رسالته ونصر الله سبحانه وتعالى، فأقدم على إرسال رسله بقلب ثابت وعزم صادق فكانت النتيجة ما يأتي:

تمكن من معرفة هؤلاء الملوك والأمراء نحوه وميلهم إليه فكانت هذه الكتب بمثابة جس نبضهم.

إسلام باذان أمير اليمن ومن معه.

إن المقوقس وإن كان لم يسلم إلا أنه أظهر الود بتلطفه مع رسول الله صلى الله عليه و سلم وإرساله الهدايا.

إسلام النجاشي على ما هو مشهور في كتب التاريخ وإن كان لم يستطع حمل شعبة على الإسلام.

أظهر الرسول صلّى الله عليه وسلّم في سياسته الخارجية دراية سياسية فاقت التصور، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء.

أظهر صلّى الله عليه وسلّم قوة وشجاعة فائقتين، فلو كان غير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لخشي عاقبة ذلك الأمر، لاسيما وأن بعض هذه الكتب قد أرسلت الى ملوك أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكسرى والمقوقس، ولكن حرص رسول الله وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله سبحانه وتعالى، كل ذلك دفعه لأن يقدم على ماأقدم عليه.

وطد الرسول صلّى الله عليه وسلّم بهذه السياسة أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل.

أصبحت الدولة الاسلامية لها مكانتها وقوتها وفرضت وجودها على الخارطة الدولية لذلك الزمان.

كُشِف للرسول صلّى الله عليه وسلّم نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه وحكمهم على دعوته.

كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عملياً على عالمية الدعوة الاسلامية تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[44].

وهكذا، فإن رسائل النبي صلّى الله عليه وسلّم الى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تعتبر نقطة تحول في سياسة دولة الرسول الخارجية، فعظم شأنها، وأصبحت لها مكانة دينية وسياسية بين الدول، وذلك قبل فتح مكة، كما أن هذ السياسة مهدت لتوحيد الرسول صلّى الله عليه وسلّم لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود[45].

المبحث الثاني:

هدي النبي في قتال الكافرين

ليس الإسلام رسالة يكره الناس على قبولها والتصديق بها، بل هي دعوة عقلية منطقية ذات قوة ذاتية بما تشتمل عليه من حقائق ناصعة وتعاليم سامية، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[46].

غير أن العادات والتقاليد الموروثة لاسيما إذا اقترنت بها أهواء أصحابها فإنها تمثل عقبات جسيمة تمنع من قبول الحق وترك الباطل، وقد يبلغ الصلف بالملأ المستكبر ممن يستعبدون الناس بغير الحق، أن يعلن الحرب على دعاة الحق وأهله، ويؤلب عليهم من ليس له في قتال أهل الحق أية مصلحة، وما دامت هذه سنة الله في الدعوات فليس من المعقول أن يبقى الدعاة مكتوفي الأيدي، لا يردون ظالماً ولا يرهبون عدواً. ولذلك شرع القتال في سبيل الله على مراحل، قال ابن القيم رحمه الله: "كان محرماً، ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور. والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع"[47].

مرحلة المنع من القتال استغرقت جميع العهد المكي أي طيلة ثلاثة عشر سنة من الظلم والاضطهاد والتضييق والمحاصرة، فمن كان له عشيرة تحميه، امتنع بعشيرته، وسائرهم تصدوا له بالأذى والعذاب[48]، منهم عمار بن ياسر، وأمه سمية، وأهل بيته، عذبوا فى الله، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا مر بهم وهم يعذبون يقول: "صبراً يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة"[49]. ومنهم بلال بن رباح، فإنه عذب فى الله أشد العذاب، فهان على قومه، وهانت عليه نفسه فى الله[50].

ثم جاء الإذن بالقتال بعد الهجرة إلى المدينة، وذلك لمنع الظلم عنهم، وتوفر القدرة في العدد والعدة، وذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[51].

ومنذ أن نزل قوله تعالى: ﴿وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[52]. بدأت المرحلة الثالثة بالأمر بقتال من يقاتلهم. وهي مرحلة مناسبة لتقدم الدولة الإسلامية وتطورها، وكون جيشها في طور الجيوش المنظمة والمدربة لاسيما بعد معركة بدر وأحد[53].

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيس الذي تسلكه قريش من مكة إلى الشام في تجاراتهم، واختار لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة، وقد عقد صلّى الله عليه وسلّم معاهدة مع جهينة قبل الأخذ في النشاط العسكري، وكانت مساكنهم على ثلاث مراحل من المدينة، كما عقد معاهدات أخرى أثناء دورياته العسكرية، وسيأتي ذكرها.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق[54].

أما الأمر بقتال جميع الكفار ففي قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[55].

والجدير بالإشارة هنا أن ليس بين هذه المراحل تناسخ، بل لكل مرحلة ظروفها الخاصة ومبرراتها الموضوعية، من حيث القوة والضعف، وتغير موقف العدو في السلم والحرب، ونوعية الكفار من أهل كتاب وغيرهم، إلى أمور عديدة ليس هنا موضع تفصيلها[56].

فنحن بحوجة إلى لمعرفة هدي النبي صلّى الله عليه وسلّم في القتال: قبل الحرب وأثناء الحرب وبعدها، وهديه مع الأسرى: في بدر، ومعاملاته مع أسرى غزوة بني المصطلق ومع بني قريظة، ومعاملاته صلّى الله عليه وسلّم مع أهل مكة يوم فتحها.

المطلب الأول: هدي النبي صلّى الله عليه وسلّم في القتال

يعرف غير المسلمين اليوم الجهاد بالحرب المقدسة، والحقيقة ان الجهاد عند المسلمين أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين. فجهاد النفس، وجهاد الشيطان – رغم أهميتهما – غير داخلين في بحثنا هذا. وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان[57].

لم تعرف الدنيا رئيساً لدولة مثل محمد صلّى الله عليه وسلّم ولا غازياً أو فاتحاً أرحم منه بمحاربيه و من يقع في يديه من الأسرى، وهذه دعوى قد تبدو عريضة ومبالغ فيها، إذا لم نذكر لها البينات الشاهدة على صدقها، وفي هذا المبحث سوف نتناول هدي النبي الكريم صلّى الله عليه وسلّم قبل الحرب وأثنائها وهديه مع الأسرى، لنقرأ من ذلك أجمع أعظم دروس الإنسانية وأروع قيم الحضارة.

أولاً: هدي الرسول صلّى الله عليه وسلّم قبل الحرب: الأحكام التي كانت تنظم علاقته بمخالفيه من مسالمين ومحاربين، المسالمة على شروط معينة، وإعلان للحرب وقبلها مقدمات

موضوعية ترجح جانب السلم من دعوة إلى الدخول في الإسلام طواعية، أو دفع الجزية للدولة الإسلامية، فإن أبوا إلا القتال والاستمرار في العناد ومحاربة الدعوة كان لهم ما يريدون. ذلك كله في قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ. وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[58].

ومع ذلك لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ينظر إلى مخالفيه جميعاً نظرة عدائية لا تفرق بين معاهد ومحارب وأهل ذمة. ولم يكن صلّى الله عليه وسلّم ينقض العهود أو يغدر بأعدائه، بل كان يعامل كل فريق من هؤلاء بمقتضى ما يربط بينهما من علاقات السلم والحرب، ولقد لخص العلامة ابن القيم مجمل هديه في ذلك في كتابه زاد المعاد فقال: "ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة، نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة "براءة" نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا فى الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان... وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام: قسما أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم، وهى الأشهر الأربعة المذكورة فى قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ وهى الحرم المذكورة فى قوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[59]. ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة

أشهر، وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول "براءة" على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب"[60].

ثانيا: هدي الرسول صلّى الله عليه وسلّم أثناء الحرب: رغم كون القتال عملية تزهق فيها الأرواح وتجرح فيها الأبدان، ويقصد فيها إلحاق أنواع الأذية بالأعداء، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شرع لأمته آداب سامية وضوابط حاكمة على سلوك المقاتل المسلم، توجب عليه مخالفتها عقوبات زاجرة في الدنيا والآخرة. فلا يستخدم في الجهاد في سبيل الله إلا الوسائل المشروعة والأساليب النزيهة.

فعن بريدة رضي الله عنه: قال:"كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا أمر أميرا على جيش، أو سرية ، أوصاه في خاصته بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى ثلاث خصال – أو خلال – فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم ، إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم ، أنهم إن هم فعلوا ذلك ، فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها ، فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين ، لا يكون لهم في الغنيمة والفيئ شئ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم ، وإذا حاصرت ، أهل حصن ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن ، وأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله،ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري: أتصيب فيهم حكم الله ، أم لا ؟"[61].

وعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه –:قال: كان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره ، قال: "بشروا ، ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا"[62].

وعن عبد الرحمن بن جبير:" أن أبا بكر لما وجه الجيش إلى الشام قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم أمرهم بالمسير إلى الشام وبشرهم بفتح الله إياها حتى تبنوا فيها المساجد فلا نعلم أنكم إنما تأتونها تلهيا فالشام أرض شبيعة يكثر لكم فيها من الطعام فإياى والأشر أما ورب الكعبة لتأشرن ولتبطرن وإنى موصيكم بعشر كلمات فاحفظوهن: لا تقتلن شيخاً فانياً ولا ضرعاً صغيراً ولا امرأةً ولا تهدموا بيتاً ولا تقطعوا شجراً مثمراً ولا تعقرن بهيمة إلا لأكل ولا تحرقوا نخلاً ولا تقصر ولا تجبن ولا تغلل. وستجدون آخرين محلقة رءوسهم فاضربوا مقاعد الشيطان منها بالسيوف والله لئن أقتل رجلاً منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم ذلك بأن الله قال[63]: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾"[64]

فهذه النصوص وغيرها تشتمل على الأصول الأخلاقية للحرب ودستور العسكرية الإسلامية التي وضعها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهذه جملتها:

1- الإخلاص والتجرد للأهداف الحقيقية للحرب وترك ما يخالف ذلك من غلول وغدر وثأر وانتقام.
2- المحافظة على البيئة واجتناب الفساد في الأرض بتحريق الأشجار وقتل الحيوانات لغير ضرورة.
3- عدم التعرض لغير المقاتلين من النساء والصبيان والشيوخ.
4- السماحة الدينية واحترام مقدسات الآخرين، بعدم قتل الرهبان والقسيسين ما لم يقاتلوا أويعينوا على القتال، وعدم التعرض كذلك لبيعهم وكنائسهم بسوء.

أما الذين يرمون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه بتهمة الدموية والهمجية فلا يعرفون هذه الأصول والآداب، ولا يراعونها في حروبهم[65]، فلقد عهدنا شرائع تعلن للناس أصدق آيات البر والخير والرحمة في تشريعها وفلسفتها وأدبها، حتى إذا حكمت نسيت ذلك كله، وانقلبت إلى أبشع صور الحقد والقسوة والاستهزاء لحقوق الشعوب، والإمعان في سفك الدماء وإثارة الحروب. ولعل أقرب الأمثلة على ذلك في العصر الحديث التناقض الواضح في الدول الكبرى التي أعلنت شرعة حقوق الإنسان في هيئة الأمم، ثم هي اليوم أول من يدوس حقوق الإنسان ويعتدي على حرماته وكرامته وسيادته، على أرضه ومقدراته. وأين الحروب الاستباقية، والإبادات الجماعية التي تمارسها الدول الكبرى ضد مخالفيها بدعوى محاربة الإرهاب وتحرير الشعوب وتصدير الديمقراطية، وغيرها من الدعاوي، و لا ترحم فيها صغيراً ولا كبيراً، ولا شيخاً ولا امرأةً، وتهلك الحرث والنسل!

المطلب الثاني: هدي الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع الأسرى

بين فقهاء السيرة النبوية هدي الإسلام وسنة الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد القتال، فقالوا: "أما المغلوب عليهم فتحترم عقائدهم ودمائهم وأموالهم ومعابدهم، وهم في حماية الدولة وحقوق المواطنين، ولا يكلفون إلا بالإخلاص للدولة ودفع مبلغ زهيد يسمى الجزية كانت الأمم الغالبة قبل الإسلام وبعده تفرضه على الأمم المغلوبة، ولا تزال الدول في عصرنا الحاضر تفرضه في كثير من الحالات على أبناء شعبها كضريبة شخصية على الرؤوس"[66].

وقد لخص ابن قيم الجوزية الكلام في هديه صلّى الله عليه وسلّم في الأسرى فقال: "وكان يمن على بعض الأسرى، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة" [67].

وواقع معاملات الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع الأسرى في غزواته مطابق لما قاله هؤلاء العلماء وإليك نبذ من مواقفه الحكيمة من الأسرى من سيرته العطرة:

أولاً: معاملاته صلّى الله عليه وسلّم **من أسارى بدر**: حفظ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لجوار المطعم بن عدي: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أسارى بدر: "لو كان مُطعم بن عدي حيّاً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له"[68].

وهذا يدل على قمة الوفاء لمواقف الرجال، ولو كانوا مشركين[69]. قتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين[70]، ولقد استشار فيهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فاختلف الصاحبان في القضية، فقال أبو بكر بأخذ الفدية منهم لمكان قرابتهم، ورجاء دخولهم في الإسلام، وقال عمر بقتلهم لسابقتهم في اضطهاد المسلمين، وكان رأي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع قول أبي بكر، وفي الغد أنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[71]. ليرجح بذلك ما قاله عمر[72].

ثانياً: معاملاته صلّى الله عليه وسلّم **من أسرى غزوة بني المصطلق**: عن ابن عون قال: "كَتَبْتُ إلى نافع أسأله عن دعاء المشركين عند القتال؟ فكتب إلي: أن ذلك كان في أول الإسلام، وقد أغار نبي الله صلّى الله عليه وسلّم على بني المصْطَلِقِ وهم غارون، وأنعامهم تسْقَى على الماء، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهم، وسَبَى سَبْيَهمْ، وأصاب يومئذ جُويرِيَةَ بنت الحارث. حدثني بذلك عبد الله وكان في ذلك الجيش"[73].

جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بنى المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها، فقضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتابتها،

وتزوجها، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا أصهار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها[74]. وجاء الحارث بن أبي ضرار بعد الوقعة، بفداء ابنته، إلى المدينة، فدعاه النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى الإسلام فأسلم[75].

ثالثاً: معاملاته صلّى الله عليه وسلّم **مع بني قريظة**: كان بنو قريظة في معسكر الأحزاب المتحالفة لغزو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وكانوا من قبل في عهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[76]، وبعد غزوة الأحزاب مباشرة ذهب إليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحاصرهم خمس وعشرين ليلة، ففي حديث عائشة: "فأتاهم – أي رسول الله – فحاصرهم خمس وعشرين ليلة"[77]، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء، قيل لهم انزلوا على حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر فأشار إليهم أنه القتل، قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ فوافقهم على ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأتي بسعد على حمار، فلما وصل جعلوا يستعطفونه في تخفيف الحكم عليهم، وحكم فيهم صلّى الله عليه وسلّم بحكم الله من فوق سبع سماوات: بأن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لقد حكمت فيهم بحكم الله عز و جل"[78].

وكان هذا الحكم في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من جريمة الخيانة، كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وحجفة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم[79].

رابعاً: معاملاته صلّى الله عليه وسلّم **مع أهل مكة يوم فتحها**: لما فتح النبي صلّى الله عليه وسلّم مكة وتم سيطرته عليها، وتمكن من صناديدها الذين فعلوا به وبأصحابه ما فعلوا، أمن الناس على أموالهم ودمائهم، إلا طائفة منهم لجرائم ارتكبوها ضد المسلمين، وهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل كانتا تغنيان بهجو النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب وهي التي وجد معها كتاب حاطب.

فأما ابن أبي سرح فعن عكرمة ، عن ابن عباس، قال: "كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، أن يقتل يوم الفتح فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"[80].

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن فاستأمنت له امرأته، أن أم حكيم بنت الحرث بن هشام – وكانت تحت عكرمة بن أبي جهل – فأسلمت يوم الفتح وهرب زوجها عكرمة بن أبي جهل من الإسلام حتى قدم اليمن. فارتحلت أم حكيم حتى قدمت عليه اليمن. فدعته إلى الإسلام فأسلم، وقدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عام الفتح فلما رآه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وثب إليه فرحاً، وما عليه رداء. حتى بايعه. فثبتا على نكاحهما ذلك[81].

وأما ابن خطل فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن النبي صلّى الله عليه وسلّم دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر ، فلما نزعه جاء رجل ، فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: اقتلوه"[82].

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين[83].

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان عرض لزينب بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم فتح مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه[84].

وبعد ذلك جمع أهل مكة وخطب فيهم فقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط أو العصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها"[85]. "إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية[86] وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقى أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان[87] التى تدفع بأنفها النتن"[88]. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[89]. ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال: "ما تقولون وما تظنون؟"، قالوا: "نقول ابن أخ وابن عم حليم رحيم. قال: "وقالوا ذلك ثلاثا فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أقول كما قال يوسف: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين". قال فخرجوا كأنّما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام. وقال لهم حين اجتمعوا فى المسجد: "ما ترون أنى صانع بكم؟"، قالوا: "خيراً أخ كريم وابن أخٍ كريم". قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"[90].

قال ابن التركماني: "وإنما أطلقهم بالأمان الأول الذى عقده على شرط قبولهم فلما قبلوه قال: "أنتم الطلقاء". يعنى بالأمان الأول والله أعلم[91].

ولا شك أنه لو قتلهم وأخذ أموالهم ما كان لهم بظالم، كيف وهم الذين اضطهدوه وأصحابه، وقتلوا من قتل منهم، وأخذوا أموالهم، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، وقاتلوهم في الدين، وأعانوا على قتالهم، وهجاهم شعراؤهم ونال منهم سفهاؤهم!! فما أرحمه بأمته! وما أرفقه بأعدائه ومخالفيه!

أما إذا حصل النصر والتمكين، فيجب الخضوع والشكر لله. فإن من عادة ملوك الأرض وسادة العالم أنهم إذا انتصروا في غزواتهم على أعدائهم ومكنوا في الأرض، افتخروا ببطولاتهم، وتلوا الخطب الرنانة في بيان قدراتهم القتالية، ومدحهم الشعراء بالقصائد الرنانة، وتحدثت عن مفاخرهم وسائل الإعلام المختلفة، وكل ذلك لما يعتريهم من نشوة الانتصار، ونسوا أو جحدوا أن النصر بيد الله، ومن ينصره الله فلا غالب له.

أما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقد سن للفاتحين والغزاة سنة التواضع لله والشكر له بعد نعمة النصر والتمكين، فقد دخل مكة مطأطئً رأسه وخاضعاً لله سبحانه[92]، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، وكان يضع رأسه تواضعاً لله حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة رحله صلّى الله عليه وسلّم.

قال المباركفوري: "ودخل رسول الله يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها، وكان ضحى، فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هي صلاة الفتح"[93].

وكل ذلك امتثال لأمر الله تعالى الوارد في سورة النصر إذ يقول جل شأنه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّـهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّـهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[94].

وبعد هذه الجولة السريعة في ظلال السيرة النبوية المطهرة، استعرضنا فيها من مظاهر كماله وآيات جماله ما يشهد على أن أروع القيم الحضارية وأنبل المشاعر الإنسانية تتمثل في سيرة نبينا الكريم، وقد دل على ذلك حقائق التاريخ ومقررات الشريعة، وقد وقع اختيارنا وانتخابنا على نبذة يسيرة من حياته تتعلق بزواجه، وجهاده، وشمائله، وذلك نظرا لكونها محل الشبهات المثارة حول شخصيته الكريمة، و إلا فإن بقية جوانب حياته الأخرى لا تقل أهمية ولا تخف وزنا مما ذكر وتنوول بالعرض والتحليل.

النتائج:

وهذه خلاصة لما توصلت إليه من نتائج، وأرجو الله أن يهدي بها البشرية التائهة في دياجير الكفر والشرك والظلم والإرهاب والميوعة والانحلال، إلى الإيمان والتوحيد والأمن والسعادة، والصلاح والرشاد:

1. تعتبر السيرة النبوية المطهرة مدرسة للبشرية جمعاء، يقتبس منها كل صنف من الناس، و من كل جنس، وفي أي موقع في المجتمع، ما يسترشد به للنجاح في رسالته.
2. إن هدف رسول الله في جهاده هو إعلاء كلمة الله ونشر دينه وتحرير شعوب الأرض من الظلم والاضطهاد.
3. ورغم نبل أهدافه وسمو غاياته في الجهاد لم يستعمل وسائل أو يستخدم أساليب غير نظيفة في قتاله مع أعدائه وخصومه.
4. كان رسول الله محترماً لمقدسات الآخرين ومراعياً للعهود والمواثيق التي بينه وبينهم لم ينتهك حرمة ولم ينكث عهداً، إلا حرمة من انتهك حرمات الله ورسوله ولم يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة، أو من أراد خيانته.
5. ومع ذلك كله كان وسطاً في كل أموره، وعملياً في كل شؤونه، لا يتكلف شيئاً من الأقوال أو الفعال أو الطباع، بل كان كل خصاله ومكرماته بالسجية. فصلّى الله عليه وسلّم.

الهوامش

[1] - راجع: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب، بيروت-1417هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د.محمد كمال الدين عز الدين علي، (ص: 303/2)

[2] - انظر: سفراء الرسول، محمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس، الطبعة الأولى: 1417هـ (258/2، وما بعدها).

[3] - يوسف: 108

[4] - أنظر: سفراء الرسول، محمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس، الطبعة الأولى: 1417هـ (258/2، وما بعدها).

[5] - يوسف: 108

[6] - انظر: المرجع السابق (278/2).

[7] - مريم: 1، 2

[8] - انظر: المرجع السابق (278/2).

[9] - مريم: 1، 2

[10] - الفقه السياسي للوثائق النبوية، خالد الفهداوي، دارعمار، الطبعة الأولى 1419هـ-1998م، ص114

[11] - الأحقاف:35

[12] - انظر: المرجع السابق (278/2)

[13] - مريم: 1، 2

[14] - أنظر: الفقه السياسي للوثائق النبوية وقد نقل عن سفراء الرسول (301/2)

[15] - أنظر: مقومات السفراء في الإسلام، حسن فتح الباب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، 1970م، ص:60

[16] - طه: 29-35

[17] - آل عمران:64

[18] - أنظر: المرجع السابق،(278/2)

[19] - مريم: 1، 2

[20] - ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين: لأبي الحسن علي الحسني الندوي، الطبعة السابعة، (1408هـ-1988م)، دار المعارف، (ص:38-39)

[21] - أنظر: العلاقات الخارجية للدولة الاسلامية، د. سعيد المهجر، ص:112

[22] - أخرجه أحمد (262/1) رقم:(2370)، والبخاري (5/1) و(66/4) و(94/9)، مسلم (163/5)، وأبو داؤد رقم: (5136)، والترمذي رقم: (2717). راجع: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: ص:107.

[23] - آل عمران:64

[24] - الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء - (306/2).

[25] - أنظر: تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ، (654/2-655).

[26] - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: د. محمد حميد الله، طبعة دار النفائس، الطبعة الخامسة (1405هـ/1985م)، (ص100).

[27] - السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير تأليف محمد بن عبد الله بن يحي ابن سيد الناس(671هـ-734هـ)، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت-لبنان (295/2)

[28] - السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون: علي بن برهان الدين الحلبي، نشر دار المعرفة، سنة: 1400هـ بيروت - (295/3).

[29] - آل عمران: 64

[30] - السيرة الحلبية - (296/3).

[31] - عيون الأثر لابن سيد الناس (333/2).

[32] - السيرة لابن حبان - (315/1).

[33] - السيرة الحلبية - (301/3).

[34] - عيون الأثر (334/2). وراجع تفصيل ذلك في: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء(317/2- 319).

[35] - السيرة النبوية لابن هشام - (13/5)، وعيون الأثر - (337/2)، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (942 هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الطبعة الأولى: (1414هـ - 1993م) - (357/11).

[36] - الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء - (320/2)، والسيرة الحلبية - (303/3).

[37] - طبقات ابن سعد: (ج1 ص 261).

[38] - السيرة الحلبية - (304/3).

[39] - أخرجه الطبرانى (29/2، رقم 1187، 1188). وابن أبى شيبة (402/7، رقم 36903).

[40] - أخرجه أحمد (363/5، رقم 23127)، وأبو داود (153/3، رقم 2999)، والنسائى (134/7، رقم 4146).

[41] - أخرجه ابن أبى شيبة (347/7)، رقم: 36627)، كنز العمال (30330).

[42] - صحيح البخاري (1/ 8) رقم (7)، مسلم (1393/3) رقم: (1773).

[43] - أخرجه أحمد (243/1) (2184)، والبخاري (25/1).

[44] - أخرجه مسلم (166/5) قال: حدثنيه نصر بن علي الحضرمي قال: أخبرني أبي، قال: حدثني خالد ابن قيس عن قتادة. فذكره. وفي رواية عبد الأعلى، زاد: «وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم».

[45] - طبقات ابن سعد: (262/1): "ذكر بعثة رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام".

[46] - ابن سعد، الطبقات: (262/1).

[47] - راجع: تاريخ الطبري – (214/2)، وتاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (445/2)

[48] - الوافي بالوفيات صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، طبعة إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1420هـ/2000م، تحقيق أحمد الأرناؤط وتركي مصطفى – (81/1)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد –(338/11).

[49] - زاد المعاد لابن القيم: (91/5).

[50] - الأنبياء: 107

[51] - أنظر: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، استراتيجية الرسول السياسية والعسكرية، د. علي معطي، مؤسسة المعارف بيروت، الطبعة الاولى 1419هـ-1998م.، ص351

[52] - الأنبياء: 107

[53] - زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، 1415هـ /1994م – (71/3-72).

[54] - المرجع السابق: (ج3 /ص 22).

[55] - أخرجه الطبرانى فى الأوسط (141/2، رقم 1508). والحاكم (438/3، رقم 5666) وقال: صحيح على شرط مسلم، وابن عساكر (371/43)، والبيهقى فى دلائل النبوة (282/2)، وهوحديث صحيح.

[56] - أنظر: مسند أحمد 404/1(3832). وسنن ابن ماجة رقم (150).

[57] - الحج: 39، 40.

[58] - البقرة: 190.

[59] - أنظر: السيرة النبوية وفق المصادر الأصلية لمهدي رزق الله، ص 326، 327. ط مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية – السعودية 1412 هـ

[60] - الرحيق المختوم للأستاذ صفي الرحمن المباركفوري ط دار الكتاب والسنة . باكستان 1417 هـ – (152/1).

[61] - البقرة: 190.

[62] - أنظر: نظام الإسلام في السلم والحرب ص 7 ط مكتبة الوراق . السعودية . الرياض 1419 هـ النشرة الإلكترونية

[63] - راجع: زاد المعاد في هدي خير العباد – (9/3، و11).

[64] - التوبة: 1 – 5

[65] - التوبة: 5

[66] - ملخصاً من: زاد المعاد في هدي خير العباد – (159/3-160).

[67] - أخرجه أحمد (352/5)، ومسلم (139/5)، وأبو داود رقم: (2612)، وابن ماجة رقم: (2858)، والترمذي رقم:(1408).

[68] - أخرجه مسلم رقم:(1732).

[69] - أخرجه ابن عساكر (75/2).كنز العمال رقم: (14171).

[70] - التوبة: 12

[71] - انظر: نظام الإسلام في السلم والحرب ص 7 ط مكتبة الوراق . السعودية . الرياض 1419 هـ ص:14.

[72] - انظر: نظام الإسلام في السلم والحرب ص: 18.

[73] - زاد المعاد في هدي خير العباد – (110/3– 111).

[74] - أخرجه أحمد (80/4، رقم 16779)، والبخارى (1475/4، رقم: 3799)، وأبو داود (61/3، رقم 2689)، وابن الجارود (ص: 274، رقم: 1091).

[75] - أنظر: التربية القيادية، منير الغضبان، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الأولى، 1418هـ – 1998م، (54/3).

[76] - صحيح مسلم – (156/5).

[77] - أخرجه أحمد 30/1 رقم: (208)، ومسلم (156/5 و157)، وأبو داود رقم: (2690)، والترمذي رقم: (3081).

[78] - أخرجه الإمام أحمد (51/2)، والبخاري (122/3)، ومسلم (136/5).

[79] - أنظر: البداية والنهاية (160/4، 161).

[80] - أنظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، د. محمد بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، (317/1).

[81] - أنظر: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، (32/5).

[82] - أخرجه أحمد (56/6)، والبخاري (4117)، ومسلم (1769).

[83] - أخرجه عبد بن حميد (149) والنسائي في الكبرى (5907 و8166).

[84] - راجع: السيرة النبوية للامام أبي الفداء اسماعيل بن كثير (701هـ - 747هـ) تحقيق مصطفى عبد الواحد، (1396هـ - 1971م)، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، (223/3-236).

[85] - أخرجه أبو داود (4358). والنسائي (107/7).

[86] - مرسل: أخرجه مالك (1183). وراجع: أسد الغابة (321/7)، الإصابة (443/4 - 444).

[87] - أخرجه البخاري في المغازي (49:6). ومسلم في المناسك (84:1). وغيرهما.

[88] - هو أحد الأربعة الذين أهدر النبي صلّى الله عليه وسلّم دمهم يوم الفتح، راجع: أبي داود (2683 و4359) والنسائي (105/7).

[89] - راجع: الإصابة في تمييز الصحابة - (524/6)، الاستيعاب - (486/1)، معرفة الصحابة لأبي نعيم - (2767/5).

[90] - أخرجه أحمد (410/3) رقم: (15465) والنسائي (40/8 و42)، وفي الكبرى رقم: (6968 و6974).

[91] - فخرها وتكبرها ونخوتها.

[92] - مفردها جعل، وهى حشرة سوداء تدير الخراء بأنفها.

[93] - أخرجه أحمد (523/2، رقم: 10791)، وأبو داود (331/4، رقم: 5116)، والترمذى (735/5، رقم: 3956)، وغيرهم.

[94] - الحجرات: 13.